

التحرير والتنوير

وقد جعل المخبر عنه الرب والخبر اسم الجلالة : لأن المعنى أن الرب لكم المعلوم عندكم هو الذي اسمه الدال على ذاته : اﷻ لا غيره ممن ليس له هذا الاسم على ما هو الشأن فهي تعريف المسند في نحو : أنا أخوك . يقال لمن يعرف المتكلم ويعرف أن له أخا ولا يعرف أن المتكلم هو أخوه فالمقصود من تعريف المسند إفادة ما يسمى في المنطق يحمل المواطاة وهو حمل " هو هو " ولذلك يخير المتكلم في جعل أحد الجزأين مسندا إليه وجعل الآخر مسندا لأن كليهما معروف عند المخاطب وإنما الشأن أن يجعل أقواهما معرفة عند المخاطب هو المسند إليه ليكون الحمل أجدى إفادة ومن هذا القبيل قول المعري يصف فارسا في غارة : .

يخوض بحرا نقيه ماءؤه ... يحمله السايح في لبدته إذ قد علم السامع أن للفارس عند الغارة نفعا وعلم أن الشاعر أثبت للفارس بحرا وأن للبحر ماء فقد صار النقع والبحر معلومين للسامع فأفاده أن نفع الفارس هو ماء البحر المزعوم لأنه أجدى لمناسبة استعارة البحر للنقع وإلا فما كان يعوز المعري أن يقول : ماءؤه نقيه فمن انتقد البيت فإنه لم ينصفه .

فقوله تعالى (إن ربكم اﷻ) جعل المسند إليه (ربكم) لأن الكلام جار مع من ادعوا أربابا والمقام للجدال في تعيين ربهم الحق فكان الأهم عند المتكلم من المعرفتين عند المخاطبين : هو تعيين ربهم فجعل ما يدل على ربهم مسندا إليه وأخبر عنه بأنه هو الذي يعلمون أنه اﷻ وأكد هذا الخبر بحرف التوكيد وإن كان المشركون يثبتون الربوبية ﷻ والمسلمون لا يمترون في ذلك لتنزيل المشركين من المخاطبين منزلة من يتردد في كون اﷻ ربا لهم لكثرة إعراضهم عنه في عباداتهم وتوجهاتهم .

وقوله (الذي خلق السماوات والأرض) صفة لاسم الجلالة والصلة مؤذنة بالإيماء إلى وجه بناء الخبر المتقدم وهو (إن ربكم اﷻ) لأن خلق السماوات والأرض يكفيهم دليلا على انفراده بالإلهية كما تقدم عند قوله تعالى (الحمد ﷻ الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) " بسورة الأنعام " .

وقوله (في ستة أيام ثم استوى على العرش) تعليم بعظيم قدرته ويحصل منه للمشركين زيادة شعور بضلالهم في تشريك غيره في الإلهية فلا يدل قوله (في ستة أيام) على أن أهل مكة كانوا يعلمون ذلك وفيه تحد لأهل الكتاب كما في قوله تعالى (أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل) وليس القصد من قوله (في ستة أيام) الاستدلال على الوحدانية إذ لا دلالة فيه على ذلك .

وقد اقتضت حكمة اﷻ تعالى أن يكون خلق السماوات والأرض مدرجا وأن لا يكون دفعة لأنه جعل

العوالم متولدا بعضها من بعض لتكون أتن صناعا مما لو حلقا دفعة ولىكون هذا الخلق مظهرا لصفاء علم الله تعالى وقدرته فالقدرة صالحة لخلقها دفعة لكن العلم والحكمة أقتضيا هذا التدرج وكانت تلك المدة أقل زمن يحصل فيه المراد من التولد بعظيم القدرة ولعل تكرار ذكر هذه الأيام في آيات كثيرة لقصد التنبيه إلى هذه النكتة البديعة من كونها مظهر سعة العلم وسعة القدرة .